



6 ديسمبر 2014

حاجتنا إلى القوة الروحية (الإيمان) 1/2

(1) الصِّراعُ الخنمي

إِنَّ الصِّراعَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَدَرٌ إِلَهِيٌّ، بدأ منذ خُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخَاصَّةً كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُضِلِّحِينَ «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ»، وهو إحدى السنن الكونية التي حفظ الله بها الأرض والدين «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»، «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا».

وقد أكدت السنَّة المطهرة بكل وضوح أنه ماضي إلى يوم القيامة، ولن ينحلي أهل الحق عنه كائنه ما كانت التصحيبات التي يضطرون لتقديمها، فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتواتر: «لا تزال طائفة من أمتي طاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك».

(2) العُوةُ دونَ إيمانٍ عُروُزٍ وِجْداع

صحيح أنه قد يظهر أحياناً أن لأهل الباطل صولةً وجولةً، إلا أن الصحيح أيضاً أنها جولة مؤقتة، وأن الباطل إلى زوال «لا يغررك تقلب الدين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم ماؤهم جهنم ونس المهاد».

ولن ينفع أهل الباطل ما مكنهم الله فيه «وجعلنا لهم سمماً وأبصاراً وأفئدةً فما أعنى عنهم سماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيءٍ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون» لم يعن عنهم ذكأؤهم ولا دهاؤهم ولا علمهم وحضارتهم ولا علؤهم وتطاؤلهم من شيء، بل كان مصيرهم الهلاك والخسران، في الدنيا بالذمار، وفي الآخرة بالعذاب المهين.

فالباطل شأنه ضعيف واهٍ لا يضمند أمام الحق وأهله «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»، «مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياءً كمثل العنكبوت بيثا وإن أوهن البيوت لتبيث العنكبوت لو كانوا يعلمون».

ويعتمد الباطل في قوته وجبروته على تعرير الشيطان وتحريضه لأوليائه، وما يربن ويصحم لهم من قوة المادة وفعلها، وما يمتبهم به من نصرتهم لهم، فإذا عزم الأمر خذلهم وبدأ لهم ما هم عليه من ضعفٍ وخورٍ «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه قلياً تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين».

(3) تبيجة الصِّراعِ مَحسومةٌ لصالح أهل الإيمان

أكدت الآيات القرآنية على أن حسم هذا الصراع والتحدّي لم يكن ولن يكون إلا بالقوة الإيمانية، إضافةً إلى القوى المادية الأخرى «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»، «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

ذلك وعد الله الذي لا يتخلف «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون».

فإن كان الاعتماد على القوة المادية وحدها في الميدان فمصيرها حتماً عاجلاً أو آجلاً إلى التهاوي والهوان والأحزان «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين».

بأني نصرُ الله لأهل الإيمان في الدنيا بأشكالٍ ثلاث:

1- انتصار الحق على الباطل واندناؤ آثاره بجند الله الكونية، وبخاصة إذا صَغَفَت فُؤَى الحق عن المواجهة، كما كانت نهاية قوم لوطٍ ومَذْبَنٍ وعادٍ ونمودٍ وفرعونٍ وقوم نوح ﴿فَكَلاَّ أَجْدَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أُعْرِفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

في قصة أصحاب الغيل خير مثال لذلك، إذ هزم الله أصحاب الغيل وردهم عن البيت الحرام دون أدنى فعل من أهل مكة.

2- انتصار الحق على الباطل واندناؤ آثاره بجند الله من المرسلين وأتباعهم، حتى لو كان أهل الحق قلةً أدلةً، كما كان الحال مع طالوت وجالوت، ﴿فَهَرَمُوهُمْ يَأْذِنُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُودَ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وكما كان الحال مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحبه الكرام، في معاركه مع قريشٍ والنبي نُوحٍ بفتح مكة وإخراجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقبائل اليهود من جزيرة العرب، وبعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت الفتوحات الإسلامية التي أُطْلِقَتْ على مشارق الأرض ومغاربها، وأنهتُ امبراطوريتي فارسٍ والرُّومَ للأبد.

3- انتصار الحق على الباطل بصبر أهل الحق دفاعًا عن دينهم ونباتهم عليه، حتى لو تعرَّضوا للقتل والتشريد والسجن والتعذيب فترة من الزمان، وإن بدأ هذا الحال لبعض بأنه هزيمة، لكنَّه النصرُ المؤكَّد لأهل الإيمان، حين طَفِرُوا برضوان الله وجنَّاته، وبقيت آثارهم وسيَّرهم في الدنيا مثالًا للثبات على الدين والبدل والتضحية والفداء، وهو أولُ الطريق لتحقيق النصر المادي في صورته السابقتين.

وقد مثل أصحاب الأودج هذه الحالة حيث قُتِلَ المؤمنون بالنار، فخلد الله ذكراهم، وبقيت قصتهم مثلًا يُصْرَبُ على مرِّ العصور لأهل الثبات على الدين، وكذا مثلُ ابن آدم المقتول.

ولا يعني الصبر والثبات الاستسلام للباطل والخضوع لبطشه، بل لا بُدَّ من مواجهته بكلِّ ما نملك من الأسباب المتاحة، فإذا شاء الله أن يُسلِّطهم علينا لحكمة يعلمها، وليختبر صبرنا على تكاليف الحق وتضحيتنا لوجهه الكريم؛ فإننا نصبر لحكم الله، ونستمر في الإعداد والمواجهة، حتى يفتح الله بيننا وبين الظالمين بالحق، وهو خير الفاتحين.

(5) وتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ

ويحسنُ أن نوَكِّدَ أَنَّ كلا الفريقين يتحمَّلُ الأَلمَ والقَرْحَ والمشقَّةَ في هذا الصراع، وليس المؤمنون وحدهم، فأهل الباطل كذلك يتألَّمون وينالهم القَرْحُ والأَواءُ، ولكن شتاتَ بين هؤلاء وهؤلاء، إِنَّ المؤمنين يتوجَّهون إلى الله بجهادهم، ويرتقبون عنده حُسنَ الجزاء، ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فكلما زاد إيمانهم بما عند الله من الأجرِ والثوابِ هان عليهم ما يُلَافُونَ في سبيل الله، وتَعَوَّى عزائمهم ويكتبُ اللهُ لهم العَلَبَةَ والتَّمَكِينَ.

إنَّه الإيمانُ الذي يُباشِرُ قلوبَ المؤمنين، فيحرِّكُ فيهم مشاعرَ الأملِ والثقةِ بالنصرِ والتأييدِ من ربِّ السمواتِ والأرضِ، فتنتلِقُ الأفتدةُ الطاهرةُ تُناجي ربَّها في ظلماتِ الليلِ، وتُقارِعُ عُدُوها في وصحِّ النَّهارِ، فيكتبُ اللهُ لها النَّصرَ والتَّمَكِينَ، إنَّه دينُ الله، وإنها العقيدةُ الربَّانيةُ التي ارتضاها اللهُ تعالى للخلقِ، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَقَدْ أَخَذَ بِأَسْبَابِ النِّجَاةِ والنصرِ والتأييدِ، وَمَنْ قَاءَ إِلَى رَبِّهِ فَقَدْ أَوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، فيقذفُ اللهُ في قلوبِ أعدائه الوهنَ، فلا تُجْدي عُدَّةُ ولا مناع.

إنَّنا في أمسِّ الحاجةِ لهذه القُوَّةِ الرُّوجِيَّةِ في الفردِ والتي هي مصدرُ لغوَّةِ المجتمعِ الذي يعيشُ فيه والأُمَّةِ التي ينتمي إليها، فمن أين يستمدُّ المؤمنُ هذه القُوَّةَ العظيمةَ؟ هذا ما يأتي جوابه في المقال التالي بإذن الله.